دور مناهج التاريخ في بناء الفكر الإنساني.

د صائل مخلوف

(الإيداع: 12 كانون الثاني 2020 ، القبول: 23 آذار 2020)

ملخص :

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على مناهج التاريخ بشكل عام ودور مناهج التاريخ في بناء الفكر الإنساني ومحاولة شرح أن التاريخ هو تاريخ العقل والإبداع والفكر، وليس بالضرورة أن يكون التاريخ هو تاريخ حروب وكوارث وويلات وإن إبداعات ومخترعات الحضارات القديمة قد استفادت منها الحضارات المتلاحقة في الفنون والعمارة والطب وغيرها وبالتالي فهي نتاج المجتمع البشري ككل من أجل خير البشرية كلها.

وكيف استطاعت مناهج التاريخ في سورية أن تقدم لطلابنا الأعزاء أن تقدم لطلابنا هذا الفهم الصحيح لمعنى التاريخ. وإن هذا الفهم هو شيء ضروري لإدراك معنى التاريخ، وبالتالي أخذ العبر وتلافي الكوارث والحروب والبحث عن سبل التقارب مع الحضارات وتحاورها وليس البعد والتناحر والحروب.

The Role of The Curricula of History in Building Human Thought.

Dr Saeel makhlooof

(Received: 12 January 2020, Accepted: 23 March 2020)

Abstract:

This research aims to shed light on the curricula of history in general and the role of the curricula of history in building human thought.

It is an attempt to explain that history the history of reason , creativity and thought and not necessarily that history of wars, disasters and woes .

This innovation and inventions of ancient civilization have benefited from successive civilizations in the arts , architecture, medicine, and other fields.

Thus, it is the product of human society as a whole for the good of all humanity.

And how the curricula of history in Syria provide our students with this right understanding of the meaning of history , and that this understanding is an essential matter for realizing the meaning of history.

Thus learning lessons and avoiding disasters and wars and searching for ways of rapprochement and dialogue with civilizations, not far from them, rivalries each other because of wars.

يقصد من كلمة التاريخ، السعي لإدراك الماضي وإحيائه، الماضي في جميع وجوهه ومظاهره، المعتقدات، التقاليد، النظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، وليس فقط المعارك الحربية والوقائع السياسية.

وكتابة التاريخ عبارة عن شكل الحوار الذي لا يتوقف بين عصرنا والعصور السابقة، إنه معرفة الماضي وتحليل الحاضر وبالتالي استشراف المستقبل، أي إن فهم الماضي يساعد الإنسان على إدراك مشكلات الحاضر وبالتالي الإعداد للمستقبل بوعي وإدراك. [1]

" لماذا التاريخ "

يتساءل بعضنا اليوم لماذا التاريخ ولماذا العودة إلى الماضي في كل هذا العالم المضطرب من حولنا في هذا الوقت الذي تتصارع فيه الأمم والشعوب ويسعى كل منها إلى الغلبة والعلو والتفوق ويطغى على البشرية جميعاً وحالة من القلل والخوف من المصير الذي قد ننتمي إليه جميعاً.

أليس من الأفضل أن ننسى الماضي ومشكلاته وأن نتحول إلى ما يكفل استمرار البشرية ويقيها الأخطار والمنزلقات.

نعم هذا الكلام صحيح ولكن هذا القلق والخوف لا يعالج معالجة صحيحة تبعد الخطر من جذوره إلا بمعرفة جذوره التاريخية العميقة لا أن تنصرف إلى خلافاته السطحية البارزة، فكل معالجة غير ذلك هي معالجة محكوم عليها بالفشل وإن تبدت في مظاهرها الأولية ساطعة براقة لأن الأصل في معالجة أي مشكلة هي المعالجة الجذرية الشاملة [2]

ولعل دور مناهج التاريخ في معرفة الجذور العميقة للمشكلات التاريخية التي واجهت البشرية في الماضي وتواجهها في الحاضر أمر مهم جداً لتفادي حدوث المصائب والويلات لأن معرفة جذور المشكلة بشكل صحيح وتقديمها بمعطياتها الواقعية يساعدنا على إيجاد حلول واقعية وقابلة للتنفيذ والاستمرارية. فكم من مشكلة استمرت ونمت وأحدثت حرباً أحرقت الأخضر واليابس هي ناجمة أصلاً عن الجهل بأسبابها أو معرفة خلفياتها التاريخية سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الشعوب.

يستند فهم التاريخ إلى حالة واقعية يعول عليها أن تأخذ الدروس والعبر من الأخطاء التي حصلت وبالتالي تلافي هذه الأخطار في الحاضر وقد وعى قادة وساسة الدول لهذه الحقيقة فتجدونهم في كل منعطف تتعرض فيه بلدانهم للخطر يعودون إلى التاريخ يذكرون فيه أبناء بلدانهم بتاريخهم التليد وبحضاراتهم التي أنتجوها وبطولاتهم السابقة ومن هنا يثبت لنا التاريخ أنه من أكثر العلوم قدرة على استنهاض الأمة وبعثها من جديد. [3]

لا ينبغي أن نغفل عاملاً مهماً من عوامل تأثير التاريخ على الفكر الإنساني وهو العامل الديني فقد استندت الأديان إلى تبيان السلوك القويم لبني الإنسان وسوقهم إلى فضائل الأخلاق عن طريق كشف أغوار الماضي ومقارنة الحضارات السابقة بالحضارات اللاحقة وتبيان مصير الأمم والشعوب التي لم تأخذ بمكارم الأخلاق وقد درج الكتاب الكريم على هذا المنوال على الرغم من أنه لم يحتو أي إشارة إلى وقت معين أو تاريخ وإنما اكتفى بإيراد الأسباب والنتائج.

" قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين " [4]

نرى القرآن في هذه الآية يذكر الناس بضرورة النظر إلى الماضي ومعرفة العواقب التي آلت إليها مصائر الشعوب والأقوام السابقة بل إن القرآن يفرد سور كاملة بعرض فيها لأهل الكهف وأصحاب الأيكة وناقة صالح وقصة يوسف وموسى وفرعون ويذكر الناس ويدعو إلى التخلق وأخذ العبر وقدم التطاول والتكبر والتجبر مما يقود إلى النهاية المحتومة.

---

[1] . خيرية قاسمية : إعادة النظر في كيفية كتابة التاريخ لماذا؟ كيف ن مجلة شؤون عربية ن أيلول ، 2000م ، ص63

2 . قسطنطين زريق : نحن والتاريخ، بيروت ، 1985، ط6، ص14

3 قاسمية: مرجع سابق، ص64

4 آل عمران ، 137

ويبدوا إن الخطاب القرآني هو امتداد للأمر الديني في الحضارات القديمة هذه الحضارات التي مالت إلى تفسير الظواهر المادية تفسيراً روحياً أو باطنياً إذ أن لعدد من الأمور الجارية في عالمنا أسراراً طواها الله عنا فلا يطلع عليها إلا قليل[5].

ينبغي للباحثين في التاريخ أن يركزوا على الضرورات التي يسعى علم التاريخ لإبرازها فلا بد من قلب الفكرة السلبية التي لا ترى في تاريخ الإنسانية سوى تاريخ أخطائها وضلالها[6].

بل على العكس من ذلك إذ أن تاريخ أي أمة أو شعب لا يمكن أن يكون تاريخاً منفصلاً عما سبقه بل هو جزء من تاريخ البشرية جمعاء تأثر فيما قبله وأثر فيما بعده ولا بد من تأكيد استمرار التفاعل والعطاء الحضاري على مر العصور وفاعلية هذا العطاء وقيمته الإنسانية الرفيعة، وقد أسس هذا الأمر لمجموعة كبيرة من الأسئلة والتساؤلات عن هوية التاريخ نفسه هل هو علم أم أدب أم الاثنين معاً؟ هل التاريخ حركة أم هو الذي يحتوي الحركة، ولماذا ندرس التاريخ؟ هل في التاريخ عبرة؟ هل التاريخ والتأريخ شيء واحد؟[7]

كيف طور التاريخ الفكر:

قلنا في مقدمة البحث إن التاريخ هو السعي لإدراك الماضي وإحيائه وهذا الماضي ليس فقط أحداث ومعارك بل فكر أيضاً، وإحياء الفكر هو أهم ما تتطلبه مسيرة البشر ولا أجد بدأ في هذا المجال من ذكر عصر النهضة في أوربة فقد أطلق اسم عصر النهضة من الناحية الفكرية على الحالة التي خرجت فيها أوربة من عقلية القرون الوسطى وانطلقت نحو مسارات جديدة في التفكير بعد أن كانت عقول الناس قد وقعت تحت تأثير رجال الدين والكنيسة وإن العلم بالنسبة لهم هو ما وجد في الكتب المقدسة أما الثقافتين اليونانية والرومانية فهما ثقافتان وثنيتان لا يجوز الأخذ والاقتباس عنهما وبالتالي فقد أغلقت الكنيسة الفكر ضمن حواجز الدين وقتلت روح البحث والتجديد فيه.[8]

نبذ الأوربيون التفكير السلبي وعادو إل كتب الإغريق والرومان القديمة وكتب العرب يتدارسونها إلى جانب الكتاب المقدس فشرعوا يبحثون وينقبون عن الكتب اليونانية اللاتينية القديمة وكذلك عن الآثار الفنية في إطار الحضارتين القديمتين حبث تمت الموازنة العقلية بين الحضارات القديمة وحضارة العصور الوسطى وبالتالي الانفتاح على مبادئ واتجاهات لم يألفها الفكر البشري وأهم هذه المبادئ النظرة إلى الحياة الإنسانية على أنها غاية في ذاتها وإن الإنسان مركز ومقياس لها[9].

وبالتالي فإن حركة التاريخ بمجملها تابعة لهذا الإنسان بل إن أرنولد تونيبي [10] درس الحضارات التي ظهرت في العالم كلها وخلص إلى نظرية التحدي والاستجابة التي تقوم على أن تاريخ البشرية هو تاريخ حضارات وليس دول وتتلخص فكرة تونيبي في أن الجماعات قابلها تحدي في حياتها فالتي استجابت لهذا التحدي صنعت حضارة ومثال ذلك حضارات وادي الرافدين وكذلك وادي النيل وأما التي لم تستجب فقد تحجرت وعجزت عن إدراك سلم الحضارة[11].

لم يكن التطور الفكري الذي لحق الحضارة الأوروبية في عصر النهضة سببه الوحيد هو العودة إلى التراثين الروماني واليوناني والأخذ منهما بل هناك عامل لا يمكن إغفاله وهو الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية والأخذ عنها سواء أكان ذلك عن

---

5 عمر فروخ : تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه ، دار الباحث، بيروت ، ط1 ، 1980 ص65

6 . منتيسكو السياسة والتاريخ ، ت نادر ذكرى دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ط1 ، ص15

7 . نقولا زيادة : التاريخ ضروبه أبعاده فلسفته ، جامعة اليرموك ، 1993، ص69

8 . ليلى صباغ معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث، جامعة دمشق ، ط4 ، 1998، ص116

9 . ليلى صباغ : المرجع نفسه ، ص116

10 . مؤرخ بريطاني ولد في 14/4/ 1889 في لندن توفي في 12 تشرين الأول 1975 م أهم أعماله موسوعة دراسة التاريخ في عشر مجلدات

11 . نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص85

طريق الأندلس التي سيطر عليها العرب لفترة طويلة من الزمن أو عن طريق التجارة وكذلك الحروب الصليبية [12]والتي كانت عبارة عن تماس مباشر بين الحضارة العربية والقادمين الجدد من الغرب، وقد رأى أمراء وملوك أوربا في هذه الحروب فرصة لا تفوت من أجل مد نفوذهم خارج أوربا وكذلك فرصة لتلبية ميول المغامرة وحب الثروة والسيطرة على الطرق بين الشرق والغرب[13].

ومهما يكن من أمر فإن ما يهمنا في هذا المجال هو القول إن علم التاريخ كان مجالاً واسعاً ورحباً لإعادة إطلاق زمام المبادرة العقلية وإعمال العقل في كافة العلوم التي قدمها الأقدمون سبراً لأغوار الماضي واستقراء لمجالات المستقبل وأهم النتائج الفكرية لدراسة التاريخ هو الوصول إلى نتيجة أساسية وهامة وهي وحدة الحضارة البشرية إذ إن أي إبداع حضاري في مرحلة تاريخية معينة قد شكل أساساً ومقدمة لإبداعات أخرى بنيت عليها

على سبيل المثال: تقدم الفراعنة في علم الهندسة والعمارة كان مقدمة وأساساً لتطور علم الهندسة في العصور الحديثة

وإذا ذهبنا إلى أبعد من هذا نلاحظ أن كل علم لا غنى له عن الأخذ بالماضي بعين الاعتبار فالطبيب عندما يعالج المرض يبدأ بالسؤال عن نشوئه وتطوره وعما اعترى المريض من علل سابقة، والفلكي الذي يعاين الكون لا بد له من أن ينظر إلى الأجرام السماوية وتحولها كيف كانت وأين أصبحت

فالتاريخ هو إذن من هذا الوجه منساب في شتى العلوم والآداب مرتبط بها متفاعل وإياها ولكنه يتميز عنها من حيث انصبابه على الماضي بالذات[14]

بالرغم من كل هذا فإن التركيز على الجوانب الحضارية في التاريخ هو أمر أسمى بكثير من السياسة وأحداثها والحروب وويلاتها ومن الخطأ الافتراض إن التطور التاريخي قد حدث دفعة واحدة، وهذا لا يعني النظر إلى التاريخ على إنه أجزاء متفرقة بل ككل متكامل[15]

إن التركيز على دور التاريخ في بعث التفكير الفعلي وإعمال العقل في قضايا الماضي والقضايا المعاصرة لا يعني أن نغفل الجوانب السلبية في كتابة التاريخ فنحن نحتاج إلى الموضوعية في كتابة التاريخ، ولبس إلى المبالغات وافتعال المفاخر ولا إلى التمويه والتغطية على ما يجري في التاريخ من نقائص وأخطاء وعلينا أن ندرس تاريخنا بروح النقد والتفهم فلا نضفي روح القدسية عليه فهو في النهاية تاريخ بشر ولا يمكننا هدم وتقويض حقائقه على الشك الساخر[16]

منهج التاريخ الوطني

سعت وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية من خلال المركز الوطني لتطوير المناهج إلى إعداد مناهج مطورة في مجموعة من المواد ومنها مادة التاريخ، بما يلبي الحاجة إلى التطور العلمي في هذه المادة ويحفز التفكير لدى المتعلمين وأقتبس مما ورد في مقدمة كتاب قضايا تاريخية للصف الثاني الثانوي

---

12 . استخدم المؤرخون العرب المعاصرون للحروب الصليبية مثل ابن القلانسي وابن الأثير والعماد الأصفهاني مصطلح حروب الفرنجة لأنهم رأوا في الصليب رمز للفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين ولم يكن الصليب رمزا للحرب والقتل والعدوان : لمزيد من التفاصيل انظر قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية ، عالم المعرفة العدد 149 أيار 1990

13 . عبد الله سليم عمارة : حملات الفرنجة وإسرائيل : الهيئة العامة للكتاب ، دمشق 2009 ، ط1 ، ص39

14 . قسطنطين زريق : مرجع سابق ، ص50

15 . عبد العزيز الدوري : كتابة التاريخ العربي ، مجلة المستقبل ، مركزدراسات الوحدة العربية ، عدد 1069 ، أيلول 1992، ص9

16 . خيرية قاسمية : مرجع سابق ، ص 75

" ركز المؤلفون على أساسيات المعرفة وعلى العمليات العقلية لدى المتعلم والتي تؤثر في سلوكه وبخاصة تنمية مهارات التفكير التاريخي، مهارة الإدراك الزمني، الفهم التاريخي، الإدراك المكاني، التفسير التاريخي، التحليل التاريخي، التفكير الناقد، البحث والاستقصاء التاريخي، اتخاذ القرار، مهارات حياتية كالتعلم الذاتي ويعمل ضمن فريق [17]"

يشير الاقتباس السابق بما لا يقبل الشك إلى أن المنهج الوطني لمادة التاريخ قد ركز على المفاهيم الفكرية وحفز العقل على الانطلاق وممارسة عمليات التفكير والإبداع من خلال تحليل الأحداث التاريخية وتحليلها وتعزيز القيم الوطنية ومفاهيم المواطنة يتضح من مشروعات التطوير لمناهج المواد الاجتماعية أن هناك اجماعاً على أن الهدف الرئيسي من تدريس المواد الاجتماعية هو تربية المتعلم اجتماعياً من خلال مساعدته على فهم ماضي مجتمعه وتراثه وفهم العالم من حوله واكسابه كفايات ومهارات يتفاعل من خلالها مع قضايا مجتمعه إيجابياً ويمتلك القدرة على اتخاذ القرار وروح المبادرة لصالح وطنه وأمته والإنسانية جمعاء وذلك بعد اكسابه المعارف والمهارات والاتجاهات والقيم المناسبة[18]

كما يتضح من خلال المناهج الاجتماعية أنها ترتبط بمنهاج لصف محدد أو مرحلة محددة بل هي تتصف بالعمومية والعمق وتضمنت هذه المناهج مجموعة كبيرة من الأسئلة والتساؤلات التب تستثير المتعلم وتحفزه على البحث والابداع وتخليل الأحداث ووضعها ضمن سياقها الزمني والمجتمعي

تضمنت المناهج مجموعة من الأنشطة الصفية واللاصفية التي تثري العملية التعليمية وتسهم بشكل فعال في مهارات التفكير التاريخي وتجعل المناخ المدرسي يتناسب وميول المتعلمين وتحفزهم على الاطلاع والبحث والتقصي والاستنتاج

تجدر الإشارة إلى أن عملية إعداد المنهاج في مركز تطوير المناهج قد تمت بأيدي وعقول المدرسين والتربويين السوريين الذين تم اختيارهم من ذوي الخبرة والكفاءة وأصحاب الميول للبحث العلمي والتقصي الدقيق للحقائق والأحداث وإن هذا الجهد لم ينجز بين عشية وضحاها بل هو ثمرة عمل مضن أخذ وقتاً طويلاً وكلف جهداً حقيقياً حتى وصل بشكل متكامل إلى أيدي أبنائنا في المدارس السورية كافة

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذي تم حتى خرج المنهاج الحديث بهذا الشكل فإن المؤلفين لم يغفلوا الطلب من زملائنا المدرسين والمعلمين والقائمين في الميدان وأيضاً أولياء الأمور وذوي الخبرة والشأن وجميع المهتمين من إبداء ملاحظاتهم ومقترحاتهم حول المنهاج بما يكفل تلافي الضعف والهنات داخل المنهاج إن وجدت

وقد يقول قائل كيف تعللون الواقعة التاريخية وهي نسبية مختلف عليها من طرف إلى آخر من طرف منتصر إلى طرف مهزوم ومن جيش غالب إلى جيش مغلوب فهي مختلفة باختلاف الراوي، نقول له إن إعمال الفكر في التاريخ لا يقتضي التركيز على الحدث وإنما التركيز على البعد الحضاري للحدث فلبس المهم بالنسبة لنا مثلاً دخول العرب إلى الأندلس وفتحهم لها بقدر ما هو المهم النتائج الحضارية التي تمخضت عن ذلك من فنون وعمارة وغيرها كما إننا لا نركز على حروب الفرنجة من حيث كونها أحداث عسكرية بقدر ما نركز على ما أحدثته من احتكاك بين الحضارتين العربية والأوروبية وهكذا فإن إعمال الفكر ليس بالضرورة التركيز على الحدث وهنا لا بد من الإشارة جول ما هي عليه الدراسات التاريخية وما يجب أن تكون[19]

بمعنى إننا نركز على التاريخ ليس التاريخ بمفهومه الحدثي وإنما بمفهومه الحضاري وهنا أهم تجليات التاريخ بمفهومه الفكري

17 . مجموعة من المختصين ، قضايا تاريخية ، مركز تطوير المناهج التربوية ، ط1 ، 2018 ، ص4

18 علي الحصري وآخرون : العلوم الاجتماعية (التاريخ والجغرافيا) وطرائق تدريسها ، جامعة دمشق ، 2005م ، ص361

19 . ليلى الصباغ : دراسة في منهجية البحث التاريخي ، جامعة دمشق ، ط6، 1997، ص7

تعليل التاريخ

إن محاولة معرفة أسباب الحوادث التاريخية والإجابة عن مجموعة الأسئلة، لماذا وقعت الحادثة وكيف وقعت ولماذا اتخذت هذا الشكل وبالمعنى الواسع فإن مجمل الإجابات في هذه الحالة هي ما يطلق عليها تعليل التاريخ[20]

يلاحظ من خلال التعمق في المفاهيم التاريخية إن الإنسان منذ نشأته الأولى وهو يبذل المحاولة مرة تلو المرة النفاذ إلى الماضي وتفهم القوى العاملة في تكوينه ومن هنا كانت النظم الدينية والفلسفية والعلمية التي أنتجها العقل البشري لمعرفة القوى التي تسير هذا التاريخ

ففي فجر التاريخ توجه الإنسان إلى قوى خارجية أطلق عليها الآلهة أو الأرواح ثم أتى الأنبياء وبشروا بوجود إله واحد هو خالق الإنسان ومبدعه وحافظه والمهيمن على حياته أما في العصور الحديثة فقد مال الإنسان إلى تفهم أثر العقل في العوامل الطبيعية وفي الكشف عن المجهول وفهم من لق بالمادة المتحركة وبالعلاقات الاقتصادية وفهم من خلط هذا كله وما هذا كله إلا دليل على أن هذا الأمر هو ميزة أصيلة في الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، وسبب هذه الميزة هو قلق الإنسان الذي يدفع به إلى البحث عن الحقيقة والتساؤل عن المصير وهذه ميزة غريزية في الإنسان دفعت به تعليل التاريخ والبحث عن جذور الحوادث

نجافي الحقيقة إذا قلنا إن الوصول إلى الحقيقة التاريخية هو أمر ثابت لدى الجميع بل على العكس إن النظر إلى التاريخ بذهن مفتوح ومحاولة قراءته للتوصل إلى النتائج لا يفترضان ذهناً خالياً، لأن التاريخ يتعامل مع وقائع إنسانية هي نتاج خبرات بشرية وليست حقائق مجردة كالمواد العلمية

ولا يمكن لمن يتعاطى التاريخ إلا أن يتأثر باتجاهاته الفكرية وبيئته الاجتماعية الثقافية وإرثه الحضاري فالمؤرخ ذو انتماء فكري واجتماعي يترك أثراً في التعامل مع التاريخ مادة ومنهجاً وتتكون لديه بعض الفرضيات والمفاهيم العامة قد تكون منطلقاً للبحث يفسر بها الأحداث وتطورها [21]

على الرغم من أننا أسهبنا في الحديث عن المعطى الحضاري والفكري للتاريخ إلا إن هذا لا ينبغي أن يصرفنا عن دور الأبطال والقادة العظماء في التاريخ بل إن بعض المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بأن تاريخ أي شعب ليس إلا تاريخاً للملوك بل إن المجتمع المدني هو المجتمع الذي قوام له إلا بالملك[22]

يركز أصحاب هذا التيار على شخص القائد سواءاً كان قائداً عسكرياً أو زعيماً دينياً أم ملكاً إدارياً كبيراً فالإسكندر وبوليس قيصر كانوا بالنسبة إلى هذه المدرسة هم الذين صنعوا أقوامهم وأزمانهم وحضارتهم وهو ما عرف باسم التفسير البطولي للتاريخ[23]

يميل التفسير البطولي للتاريخ إلى الاتزان بتفاسير أخرى فهو يعد النظرية الدينية عبارة عن دور بطل في التاريخ قاده النبي أو الرسول للوصول بشعبه أو وطنه إلى مرحلة متقدمة من القوة والعنفوان وإذا ما تخيلنا عن منظورنا الذاتي فقد نجد هذا الكلام مقبولاً من وجهة نظر عقلية

---

20 قسطنطين زريق ، مرجع سابق، ص 133

21 خيرية قاسمية مرجع سابق ،ص75

22 . عزيز العظمة الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 1983، ص77

23 . نقولا زيادة ، مرجع سابق، ص83

الموقف من التاريخ بين الإبداع والجمود

يمكن القول إن التاريخ من حيث كونه أحداث هو نفسه لا يتغير ولا يمكن لأحد مهما عظم ومهما حاول أن يغير في الأحداث الماضية شيئاً أو يبدل من وقائع التاريخ ليعود ويرسمها، ولكن الذي يتغير هو موقفنا نحن من التاريخ، وهذا الموقف تابع بطبيعة الحال إلى الخبرة والاستعداد والموروث الثقافي والاجتماعي للفرد أو الجماعة، ومدى الاستعداد العقلي لفهم الأحداث بشكل صحيح، فكم من تاريخ ماجد جميل كان بالنسبة لأهله عامل تأخر وقعود وكسل، وكم من تاريخ ضعيف أسود كان لأهله مثار نعمة ومبدأ انطلاق لأعمال رائعة وابداعات جلية أي بكلام أو بآخر إن موقف الفرد من التاريخ متوقف عليه نفسه فكيف نستطيع تفادي الوقوع في الزلل وأن لا يكون تاريخنا عامل جمود بالنسبة إلينا وكيف نستطيع أن نحول هذا التاريخ إلى حالة من حالات الابداع

يكون تاريخنا بالنسبة إلينا عامل جمود وعزلة إذا سحرنا وقبض على نفوسنا وشدنا إليه ولم نستطع الخروج من قفصه نحن إليه ونستذكره بعنفوان ويصبح جل حديثنا هو هذا الماضي وهذه الأمجاد وفي مثل هذه الحالة طبيعي جداً أن تملنا الناس ونبقى رهين هذا الماضي وتضعف حيويتنا وتخف قابليتنا للإبداع ويصبح التاريخ عامل إعاقة وتأخر بدل من أن يصبح مصدر بعث وتقدم

إن أهم معوقات تطور مجتمعنا في هذا الزمن هو تحول تاريخنا إلى حالة من حالات الجمود وذلك بفعل موقفنا منه وليس بفعل التاريخ نفسه

فكم من ناظر إلى الحاضر بأفكار الماضي وسننه وقوانينه ودوافعه وذلك دون التنبه إلى اختلاف الظروف وتبدل الأحوال فكم نرى من أشخاص وقد يكون بعضهم من المتعلمين والمتنورين وأصحاب الشهادات لازالوا يتكلمون ويتصرفون تصرفات لا تنسجم مع معطيات العصر ذلك إن تاريخهم قد قبض على نفوسهم وجعلهم يعيشون فيه ويتناسون سواه ولا يجافي الحقيقة إذا قلنا أن هذه التصرفات والسلوكيات لم يعد لها مبرر أو مسوغ في هذا الزمن مهما حاول أصحاب هذا الاتجاه من محاولات لإعادة الحياة إلى الوراء فهي محاولات محكوم عليها بالفشل لأن العقل الإنساني في تطور مستمر وأشكال الحياة ونظمها التي تبتدع في درجة من درجات التطور الإنساني لا تصلح للدرجات التالية، وقد دلت التجارب التي مرت بها الأمم والشعوب التي سبقتنا على استحالة العودة إلى الوراء وكل ممارسة للعودة إلى الوراء ليس إلا هدر للطاقات ومضيعة للوقت وربما جل ما تعانيه مجتمعاتنا العربية في هذه الأيام من أزمات سياسية واجتماعية وفكرية هو محاولات العودة إلى الماضي أو فرضه وهذا أمر لم يعد ينسجم مع متطلبات العصر ونظمه الفكرية وكل ما يمكن أن نقوله في هذا الجانب هو اعتقادنا الراسخ بأن كل جهد يتعامى عن الحقيقة سيصطدم بها آخر الأمر وينحني لها ولا خير في الانخداع عن الواقع والعودة إلى التاريخ والتقوقع داخله بكل الخير في محاولة فهمه وادراكه وتجاوز السلبيات وتعزيز الإيجابيات ومعرفة السلبيات والإيجابيات لا تكون إلا بدراسة شاملة واقعية تبدأ من التشوق إلى الحقيقة والكشف عنها وليس بمحاولة توهم تاريخنا وكأنه كتلة من الإيجابيات لا سلبيات فيها

التاريخ إبداع

يكون تاريخنا تاريخاً مبدعاً عندما نعود إلى الماضي ونستلهم منه روح التمرد والكرامة ومواد الصدق والأخلاق والبعد عن الأنانية وهذه الأشياء مجتمعة هي سبيل الإنسانية إلى التقدم والرقي ومن المعروف لدينا إن تقدم الإنسانية مرتبط بعاملين اثنين إحداهما مادي والآخر روحي فالمادي يتمثل في السيطرة على الطبيعة وإخطارها من خلال إيجاد الوسائل والآلات والأفكار اللازمة لذلك والثاني هو السيطرة على الأهواء الشخصية والأنانية وذلك من خلال الروح المتسامية والعقل الفاعل وعدم الخضوع لنوازع النفس الشريرة وكما هو معروف إن وسائل العلم وقول السيطرة على الطبيعة إذا وقفت بين أيدي نفس

شريرة قادت المجتمعات والدول إلى الهلاك وليس أدل إلى ذلك من تحكم القوى المجنونة والمتطرفة بأنواع متطورة من السلاح والنتائج هو ما نراه اليوم

ماذا نقول عن التاريخ

لا نقصد بالقول عن التاريخ في هذا الموضوع إلا الجانب الفكري والروحي ونقصد بالجانب الفكري والروحي تلك الأعمال التي يتجلى فيها الإبداع والتقدم الصحيحين بغض النظر عن العرق أو الأمة التي أنتجت تلك الأعمال بكل العلوم التي عرفها الإنسان من تقدم في فن العمارة والطب والرياضيات وكل الإبداعات التي عرفتها البشرية استفادت الأمم كلها دون استثناء ولم يكن الإبداع والفكر حكراً على أمة بعينها مما يدل على وحدة التراث الإنساني فما أنتجه الفراعنة في الطب والهندسة استفادت منه الحضارات اللاحقة وأضافت عليه ما أنتجته الحضارة المعاصرة من وسائل الرفاهية والتواصل والاتصال يستفيد منه عموم بني البشر مما يدفع الإنسان نحو مجال أوسع في الرقي والرفاهية

وبالمقابل فإن هناك أعمال ونظم فكرية فاسدة تعطل قابلية الفرد والمجتمع للإبداع أو التقدم وهي بذلك تبتعد تماماً عن المفهوم الإيجابي للإبداع والتقدم

وربما يتخذ الإنسان خطوات ولإجراءات كبيرة لمقاومة هذه الأعمال سواءً على المستوى الشخصي أو المجتمعي وهنا تصبح المحاولات الرامية إلى التخلص من الأنانية وحب الذات من انتماءاتنا السطحية الصغيرة على مستوى العشيرة والطائفة نوع آخر من الإبداع والفكر ويتحول اتجاهنا من النقائض السلبية إلى الوجه الإيجابي ونمارس رقابة داخلية على أنفسنا وهي رقابة الضمير التي أجمع الفلاسفة على إنها أفضل أنواع الرقابة

يضاف إلى كل ما سبق عن الجانب الإبداعي الفكري وربما هذا أهم ما في الأمر إذ إن قوة أي حضارة تقاس في تعميم نتائج إبداعها بين سائر المجتمعات ومكافحة كل ما يقف في طريق نشره ويتجلى هذا الإبداع فيما يحققه هذا الجهد من نجاح في رفع مستوى المعيشة المادية وفي تحقيق الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وغيرها من مظاهر التحرير والتنظيم المنصرفة إلى تعميم الفوائد " المنفعة " المكتسبة بالجهد العقلي والروحي

ونعود ونوجز كل ما قلناه عن التاريخ كونه إبداع هو مقدار ما يقدمه من فوائد روحية ومعنوية للبشرية جمعاء

ماذا يقول التاريخ عنا

نخطئ كثيراً إذا كنا نعتقد إننا نحن من نقول ونتحدث عن التاريخ وإن التاريخ لا يقول فينا بل العكس هو الصح وإن التاريخ يقول فينا سواءً قلنا فيه أم لم نقل وأقصد بالتاريخ السجل الزمني للأجيال القادمة ماذا تقول عن جيلنا وماذا ستقول عن المرحلة الزمنية التي نعيشها

فكما نقول نحن الأبد عمن سبقنا ونقدر مواقفهم ونحم في إداراتهم وتضحياتهم ونتائج عملهم وهل كانت ذات نفع أم لا ستحكم الأجيال اللاحقة فينا وفي أعمالنا ونتائجها ولذلك علينا أن ندرك هذه الحقيقة جيداً ولتكن جل أعمالنا موجهة بشكل صحيح لمستقبل أبنائنا وأجيال أمتنا اللاحقة خير البشرية جمعاء على اختلاف مشاربها وأشكالها وألسنتها

يجب علينا ألا نغفل حقيقة أخرى فكما يحكم فينا المستقبل يحكم فينا الماضي، فنحن نجد في الماضي قمماً وذرى من الحالات الفكرة والكسب الخلقي وخاصة عندما نشير إلى أولئك المبدعين الذين قدموا للبشرية مخترعات واكتشافات وقوانين ونظم ساهمت في تطور الحياة وبالتالي فكما نشعر بالفخر تجاه إبداعاتهم وعطاءاتهم نستلهم هذا الشعور تجاه المستقبل وبالتالي يكون الحكم بالتاريخ في مثل هذه الحالة إذن فإن موقفنا تجاه الإبداعات البشرية تتوقف إلى حد بعيد على ما نستلهمه وعلى من سيحكم عليه وكذلك حال المجتمع والأمة فإذا حرصنا على أن تكون كلمة التاريخ فينا بيضاء واضحة وجب علينا أن نسعى إلى قمم وأن نسأل أنفسنا السؤال التالي بنور من نحن اهتدينا ومن أجل من نحن نعمل وهكذا يكون قول التاريخ فينا

واقعاً مستمراً من الماضي ويجري في الحاضر ويتجه نحو المستقبل وهو قول لا يرحم من يخطئ ولا يتجاهل من يصيب ويكون قوله واضحاً أبيض مبين ولهذا السبب والأسباب السابقة تقوم المجتمعات والدول بدراسة التاريخ وسبر أغواره ولهذا السبب تحرص الدول على استلهام مفاتيح الرقي والتطور الروحي والمادي الذي يضمن لمواطنيها حياة كريمة بعيدة عن الاضطهاد والظلم

مقترحات

بما أن للتاريخ دور في تنمية مهارات التفكير وتحفيز المتعلم على اتباع سبل الخير والمحبة فإني أرى أن نعزز مناهجنا التربوية بالمقترحات التالية:

1- التركيز على البعد الإنساني للتاريخ فمستقبل البشرية جمعاء يخصنا جميعاً وكذلك ماضينا هو لنا جميعاً وكل تتطور هو لخير العموم وأي تراجع ينعكس على العموم

2- إن الاختلاف في توجهاتنا ورؤيتنا للماضي والمستقبل هو أمر طبيعي جداً إذ ليس مطلوب من البشر جميعاً أن يكونوا في نفس السوية الفكرية والثقافية حتى يلتقوا في نظرتهم إلى الماضي وفي تطلعاتهم إلى المستقبل أي إن الاختلاف في وجهات النظر لا ينبغي أن يكون سبباً لاندلاع حروب تعود بالبلاء علينا جميعاً

3- يجب أن نركز على العبرة من التاريخ وليس على الحدث فسقوط قلعة ودمارها وانهيار سد ومقتل عالم لا ينبغي أن ننظر له من زاوية الحدث ومن ربح الحرب أو المعركة وإننا ننظر إليه على إنه تراث فقدته الإنسانية سواء أكان مادياً كالمتاحف والقلاع والمعابد أو فكرياً مثل مقتل العلماء والفقهاء

4- إبراز المحتوى الإنساني للتاريخ العربي وتباين العلاقة الواضحة بينهم وبين الإسلام فهما يشكلان كلاً متماسكاً لا يمكن تجزئته فعلاقة العروبة بالإسلام هي علاقة روح بجسد ولا يمكن لإحداهما أن يبقى قائماً بذاته بدون الآخر

5- إشراك جيل الشباب في إعداد مناهج تربوية تعنى بالتراث الثقافي ولاسيما التراث العالمي منه وهذا يساعد على فهم موقع التراث العربي من التراث العالمي

6- التعاون مع المؤسسات والهيئات التعليمية الأخرى ولاسيما وزارتي التعليم العالي ووزارة الثقافة تشكيل مجموعة عمل لتنسيق اللقاءات والندوات العلمية وإعداد المناهج بحيث تكون المناهج عبارة عن سلسلة مترابطة لا انفصام بينها

7- إعادة كتابة التاريخ العربي على ضوء ما يستمد من وقائع وما يتم كشفه من وثائق تلقي الضوء على هذا التاريخ ولاسيما إن الكثيرين منا يعلمون إن هناك وثائق كثيرة تم اخفاؤها حفاظاً على واقع معين دون إحداث مشكلات سياسية واجتماعية كذلك ينبغي إعادة كتابة التاريخ لتفويت الفرصة على بعض الجهات التي قد تندب نفسها لمثل هذا العمل دون أن تتوافر لها المقومات العلمية المطلوبة وبالتالي نظلم التاريخ بأقلام غير جديرة بالكتابة وما نخشاه أن تظهر بعض الأقلام غير الجديرة بالكتابة

خاتمة:

ينبغي ألا نغفل عن حقيقة كبيرة وهي إن الكتابة عن الجانب الفكري في التاريخ تحتاج إلى أكثر من بحث وربما أكثر من باحث، خاصة في ظل حالة تاريخية طويلة الأمد ظلت تنظر إلى التاريخ على إنه تاريخ الأحداث وتاريخ ملوك وحكام حتى إن مجموعة من أمهات الكتب التاريخية أخذت ذات الاسم ومثل ذلك تاريخ الرسل والملوك للطبري وتاريخ الخلفاء للسيوطي

... وغيرها من الكتب الكثيرة وإذا أخذنا بعين الاعتبار إن الحالة الفكرية في التاريخ هي الأكثر نوراً وإشراقاً بكافة أبعاد الكتابة التاريخية فإن هذا الأمر يشكل حافزاً ممتازاً للباحثين في هذا الميدان

المصادر والمراجع

1- الحصري علي وآخرون :العلوم الاجتماعية (التاريخ والجغرافيا) وطرائق تدريسها ، جامعة دمشق ، 2005م

2- الدوري عبد العزيز : كتابة التاريخ العربي ، مجلة المستقبل ، مركز دراسات الوحدة العربية ، عدد 1069 ، أيلول 1992،

3- زريق قسطنطين: نحن والتاريخ، بيروت، ، ط6، 1985

4- زيادة : نقولا التاريخ ضروبه أبعاده فلسفته ، جامعة اليرموك ، 1993

5-الصباغ، ليلى معالم تاريخ أوربة في العصر الحديث، جامعة دمشق ، ط4 ، 1998،

6- الصباغ ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي ، جامعة دمشق ، ط6، 1997،

7- العظمة عزيز ،الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية مقدمة في أصول صناعة التأريخ العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 1983

8- عمارة عبد الله سليم : حملات الفرنجة وإسرائيل : الهيئة العامة للكتاب ، دمشق 2009 ، ط1

9- فروخ عمر : تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه ، دار الباحث، بيروت ، ط1 ، 1980

10- قاسمية خيرية : إعادة النظر في كيفية كتابة التاريخ لماذا؟ كيف ، مجلة شؤون عربية ، أيلول، 2000م ،

11- القرآن الكريم ، سورة آل عمران.